

الفيلسوف الحاكم - للأستاذ عباس محمود العقاد

—>>><<<—

شهدنا بعد الحرب عجباً من نجيب السياسة والرأسة لم يشهد
جيل واحد من تاريخ بني الإنسان
شهدنا موسيقاراً على رأس دولة ، وفيلسوفاً على رأس دولة
أخرى ، وهو قبل ذلك ابن حوذي وتلميذ حداد ، وتقاشين وأققيين
على رؤوس دول أخرى يجلسون على عروش القياصرة والخوفاين ،
ويسوسون شعوباً كبيرة بلغ بعضها التذروة من الحضارة والنظام
أحب هؤلاء جميعاً وأولاهم بمطف النفس الانسانية فيما نظن
هو الفيلسوف الحاكم « مازاريك » الذي قام على جمهورية التشك
والسلواك بعد الحرب العظمى ، وقضى نحبه في الشهر الفابر وهو
في السابعة والثمانين

قرأت له قبل أن أسمع الشيء الكثير عن سيرته في الجهاد
الوطني وعن مساعيه في السياسة الدولية : قرأت له كتابه الحافل
عن « روح روسيا » فأكبرت منه اطلاعاً واسماً بخيل إليك أن

يأعني بذلك أننا أسرفنا في الاطمئنان وباللنا في الاخلاص إلى
وإحيي الأمن والثقة والاستراحة إلى انتفاء المخاوف ؛ وقد آن لنا
جداً أن ندير عيوننا فيما حولنا ، وأن تدبر دلالة مآري ، وأن نمد
صرباً إلى أبعد من يومنا الحاضر . والثل يقول : « من مأمته يؤق
لحذر » فكيف بالتي لا يحذر شيئاً ، ولا يتقأ أمراً ؟ وهب أنه
« مطمع فينا فان خلو بلادنا من وسائل الدفاع الكافي ، وضآلة عدتنا
يفريان بنا الطامعين . وما زال الضعف إغراء كافياً للقوى بالوثب .
ولنحزن غير أهل للاستقلال إذا لم نحسن الحرس عليه والضم به
ولم نعد المدة لطول التدود عنه والكفاح دونه . وقد يجيء زمن
تبطل فيه الحروب وتعيش فيه الأمم إخواناً متآزرين متعاونين ؛
غير أنه إلى أن يجيء هذا الوقت السعيد لا يسع أمة تعرف لحقها
في الحياة قيمته وتدرك ما تقتضيه المحافظة عليه إلا أن تستعد
للحرب دونه . وعسير جداً أن تحيا أمة عزلاء في أمان من المخاوف
بين أم مدججة شاكية في البر والبحر والمهراء

إبراهيم عبد القادر المازني

صاحبه لن يفرغ معه لعمل من الأعمال الجسام . وخلاصة ما يقال
في الكتاب أنه لم يدع فيلسوفاً واحداً من الأقدمين أو المحدثين
الأمم برأيه وتعقب الصلات الفكرية والاجتماعية بينه وبين عقول
الدعاة البارزين من فعا حل الروسين

ووقعت لي بعد هذا الكتاب شذور من تواليه الكثيرة
يكفي لبيان نطاقها الواسع وموضوعاتها المختلفة أنها تناولت التنويم
المغناطيسي كما تناولت فلسفة باسكال وهيوم ، وتناولت أدب
الصقالبه كما تناولت الثورة العالمية ، وصدرت في ذلك كله عن
صدر رحب برىء من العصبيّة والضعفنة وعن ذهن شامل مفتوح
النافذ على شتى الأنحاء

في تاريخ هذا الرجل عبر لا تنتهي لن شاء أن يتأمل في
أخلاق الناس وفي موازين العدل والانصاف بين الأمم ، وفي ضعف
الانسان ولو كان من الحكماء وكان من الحاكمين
كنت أقرأ الثناء عليه وأقرأ الزرابة على « روجر كازمنت »

الشهيد الإيرلندي في وقت واحد
وكنت أقرأ الثناء والإزراء على عمل واحد في وقت واحد
وصحافة واحدة ، فأعجب للمقول وأعجب للأهواء ، وأعجب لمن خطر
لهم أن يقولوا مرة من المرات ولو من قبيل التجوز والمزاح : كل
شيء بالعقل في هذه الدنيا !! وما في هذه الدنيا شيء إلا والعقل
فيه حيرة ، وللضلال فيه جانب مقرون بجانب الهداية

هرب مازاريك من بلاده واتفق مع الحلفاء على تأليف جيش
من أبناء وطنه الأسرى والمبعدين ، ونجح فكان من الأبطال
وأقام في قصور هابسبرج ، ومات بين التعظيم والمحبة والإطراء
وصنع « روجر كازمنت » ، ما صنع مازاريك فهرب من
بلادته واتفق مع الألمان على تأليف جيش من أبناء وطنه الأسرى
والمبعدين ، وفشل فكان من الخونة المجرمين ، وسبق إلى القبر
وهو ينظر إلى الشمس السافرة ويهتف : ما أجل هذا الصباح !
ولكنه كان صباحه الأخير

والصحف البريطانية يومذاك تذكر هذا وتذكر ذاك ، فأما
مازاريك ببطل كريم ، وأما كازمنت نخائن أليم . ويتبع ذلك
ما يتبع الاخفاق والخزي من فرية المفترى ، وأكذوبة الكاذب ،
واجترأ اللثيم

مايسومونه ضمير المجتمع وينكرون ضحايا الأفراد منفردين، ولكنها فكرة لا يقرها العلم، ومصدرها النزعة الأرستقراطية في السياسة ...»

ووددت لو أن «مازاريك» حين مات كنت محتفظاً له بتلك الصورة التي تناسقت وتلاحقت من جهاد الشباب ومن ثورته في الكهولة، ومن بحوثه ومصفاته، ومن رسالة الديمقراطية التي قام بها على سرير الدولة كما قام بها من قبل على منصة التعليم وعلى منبر الدعاية

ولكن الفيلسوف الذي يستبق في الحكم صورة أفلاطون أو صورة «السياسة الغندرية» إن هو إلا أسطورة من أساطير الخيال، تنوهمها بالنظر وترسمها بالأمل، ولا نلحها بعين الواقع ولو أغضينا عن كثير

قبل أن يقضى الموت قضاءه في الحاكم الحكيم بأشهر معدودات وقع لي كتاب عن أوروبا الوسطى للكتاب الإنجليزي هنري بوتسي أسماه «اليد السوداء على أوروبا» أحصى فيه مظالم الشعوب الصغيرة التي ضمتها معاهدة فرساي إلى حكومات لا تفهم ولا يحبونها، ومنها شعب السلواك المضمومين إلى حكومة «مازاريك» رسول الديمقراطية ونصير كل شعب مظلوم أيام كان الظلم نازلاً بتلك الشعوب من آل هابسبرج!

وكان مازاريك قد عاقد وكلاء السلواك المقيمين بالولايات المتحدة في السادس والعشرين من شهر مايو سنة ١٩١٥ أن تكون حكومتهم مستقلة في داخل الدولة على مثال الولايات المتحدة الأميركية، وأن يكون لهم مجلسهم النيابي، وعما كهم التي يضمنون لها شرائعها، ولتفهم في التعليم والإدارة والحياة العامة

فلما جاء يوم الانجاز وقامت الدولة التي مهد لها أولئك الوكلاء إذا بأرضهم مستعمرة مملوكة، وإذا بهم أتباع مشخرون، وإذا بالعقد البرم قصاصة مهمة، وإذا بالحاكم الحكيم يتحلل من عقده فيلجأ إلى حيلة لم يلجأ إليها عاهل من عواهل هابسبرج ولا متحدثين عندنا من مناع الفتاوي وطلاب الحيل الشرعية، فيقول لوكلاء الشعب المهضوم إن العقد إنما أبرم في يوم بطلاة رسمية عند الأمة الأميركية، وذلك في شرع البلاد التي أبرم فيها يبطل لشروطه ناقض لفتحوا!

وبلى ذلك قصة أليمة من قصص الظالم والدعايات الكاذبة،

كان مازاريك في صباه عوناً للمستضعفين ولو كانوا مبغضين متبوذين، وكان نصيراً للحق ولو كان الباطل أدنى منه إلى الشهرة والاعجاب. فدافع عن اليهود في بلاد لا يطاق فيها اسم أبناء إسرائيل، وزيف الأسانيد الموروثة التي يفخر بها أبناء قومه ويمتدونها من تراث الوطن الحرام المضمون به على النقد والتشكيك، فكان أبوه أول من صدق فيه تهمة القادحين وذهب إليه يستأديه بعض المال الذي قبضه من مصارف اليهود، وكان الغلاة من دعاة الوطنية في بلاده أول من تبرأ منه وخاص في عرضه حتى قال قائلهم: «إن عاراً على وطنه أن يكون بين نسائه امرأة حملت في بطنها مازاريك»

ودارت الأيام دورها فاذا بهذا العار هو عنوان وطنه، وهو القاتل باسمه والكتاب باسمه والوكيل الذي اجتمع وكلاء بلاده بعد الحرب العظيم يعلنون على الملأ الأوربي أن كل ماوقيه مازاريك في ديار الهجرة والاعتراب هو صك نافذ على البلاد تدين به وترعاه

وجرى حديث مستفيض بين الحاكم الفيلسوف وبين المؤرخ المشهور أميل لدفيج استغرق أياماً، وجمعه لدفيج في كتاب جاوزت صفحاته ثلاثمائة صفحة، واختار له عنواناً: «حاشي الديمقراطية أو مازاريك يتكلم»

من قرأ هذا الكتاب سمع أفلاطون وأرسطو يتكلمان في العصر الحديث؛ غير أن الإيمان بالديمقراطية فيه أكبر من إيمان صاحب المدينة الفاضلة وصاحب السياسة المدنية، لأن الحاكم الفيلسوف لا يعدل بالحرية الفردية نعمة من نعم الأرض ولا نعم السماء؛ وينمي على كارل ماركس كما ينمي على فوسوليني أنهما يطويان الفرد في الحكومة، ويضحيان بالواحد على مذهب الجلة؛ ويسأله لدفيج أيهما أحق لديه بالتقديم والإيثار: السلطان أو الحرية، وإرادة الحكومة أو إرادة الأفراد؟ فيقول: «ليس في وسعي أن أعتقد أن ضمير الفرد مطوى في ضمير اجتماعي واحد. إذ ليس في الدنيا من شيء يحقق غير الضمائر الفردية. وليس أمام السياسة إلا أفراد اجتمعوا على هذا النحو ليتألف منهم مجتمع واحد يكون على ضروب شتى ومنها الفاشية. أما أنا — وأنا من الفرديين — فليس يعني أن أسيخ فكرة الاندماج أو البناء الأفراد، وأن تكون الحكومة أو الأمة أو الشعب ممثلة في شخص واحد. ولا أنسى أن هناك علماء اجتماعيين ودعاة سياسيين يقولون

الفنادق والمقاهي التاريخية

للأستاذ محمد عبد الله عنان



كما أن الآثار والأطلال والذكريات الباقية تستمد جلالها من الحوادث والمناسبات التاريخية التي ارتبطت بقيامها ، فكذلك تستمد جلالها من الزمن ؛ وقد يكون الزمن كل شيء ، فبما تشع به الأطلال الدوارس أحياناً من روعة الخلود ؛ وأقدم الهياكل والآثار هي بلا ريب أعرقها من هذه الناحية ؛ فالقديم مهما كانت ضآلته من الناحية التاريخية أو الفنية يبعث إلى النفس أثراً خاصاً ويحملها إلى تلك العصور الذاهبة الذي يرجع إليها ويرتبط بها فبالك إذا كان هذا الأثر أو الصرح القديم لا يزال كسابق عهده يقوم بمهمته التي أنشئ لها منذ الأحقاب المتعاقبة ، ويمتلي حياة وبهجة ، ويسير العصر ، ويربط الحاضر بالماضي بأوثق الصلات ؟

لسنا نريد أن نحدثك في هذا المقال عن معاهد أو آثار تاريخية من هياكل أو صروح أو معاهد أو غيرها مما اصطلاح على اعتباره آثاراً تاريخية تتنازع قيمتها الفنية والمناسبات العظيمة التي أنشئت من أجلها ؛ ولكننا نريد أن نحدثك عن نوع آخر من هذه المنشآت التي قامت دون مناسبة تاريخية خاصة لتقوم بمهمة من مهام الحياة العادية ، ثم استطاعت أن تغالب صروف الزمن ، وأن تحمل رسالتها المتواضعة خلال أحقاب وأحقاب ، وأن تبقى إلى اليوم قائمة بنفس مهمتها ، وأن تكتسب بذلك جلال القديم وروعته نريد بذلك الفنادق والمقاهي التاريخية

إنه لمن الشائق حقاً أن تنزل في فندق ما ، أو تجلس في مقهى أو مطعم ما ، فيقال لك إن هذا الفندق أو المطعم أو المقهى يرجع قيامه إلى أربعة قرون أو خمسة ، وإنه لا يزال كما نشأ باسمه وأوضاعه القائمة لم يتغير منه شيء إلا ما اقتضاه الزمن من أعمال الصيانة ، وإن كثيراً من الشخصيات التاريخية العظيمة قدمرت به قبلك ، ونزلت حيث تنزل أو جلست حيث تجلس . إن في ذلك ما يذكر الخيال ويبعث إلى النفس جلالاً خاصاً هو جلال هذه الأحقاب الطويلة التي مرت بهذه النشأة المتواضعة ، وجمال تلك

ت فيها الأصوات وذهبت فيها صرخات المفلولين على آذان صبة الأم كما تذهب زجاجة البحر الصاحب بين أجواز القضاء

سيرة الرجل عبرة لا تنقضى ودروس لا تنفد . أولها : أن ليلسوف لن يسلم من لومة الحكم والسياسة ولو أضمر الخير أسلف الجهاد الطويل في قضايا المظالم والشكايا وثانيها : أن الديمقراطية لا تسلم في وطن تختلف أجناسه ولغاته إديانه وطبقات الحضارة فيه إلا على أساس « الولايات المتحدة » لن يستقل فيها كل فريق بالحكم والتشريع وثالثها : أن أوروبا الوسطى لا تزال كما كانت قبل الحرب نظماً غيلاً تصطرع فيه ضواري الأحقاد وبوشك أن يندفع بالمرة أخرى إلى حرب لا تؤمن لها عاقبة وإننا على ما انتاب الديمقراطية من خيبة ، وما تعاورها من بنس وتقويض ، لا تزال على إيمان وثيق بها أنها هي كهف السلام معقل بني الإنسان ، ومآل الحكم في المستقبل البعيد إن لم يعجل النصر في مستقبل قريب

فالدول الديمقراطية لا تبني الحرب كما تبنيها الدول الدكتاتورية ، بريطانيا العظمى وفرنسا والولايات المتحدة لا يخشى منها على سلام لم كما يخشى من إيطاليا وألمانيا واليابان والجمهوريات الروسية ولقد يقال إن بريطانيا العظمى وفرنسا والولايات المتحدة تسالم الدول الأخريات لأنها شبت من المستعمرات فلا حاجة إلى المشاكسة ولا إلى اقتحام المشكلات ، لكنه اعتراض يه في ظاهره غير وجيه في لبابه . إذ أن المسألة والاكتفاء من جميع الدول الديمقراطية ولو لم تكن لها مستعمرات ولا أسواق مملوكة في بلاد المستضعفين ؛ وهذه الدنمرك والسويد والنرويج وسويسرة لا تملك أرضاً وهي من اليسر والرواج في حال يحسدها عليه المالكون ؛ وربما خلت من الجند والسلاح فليس بها إلا قليل من الشرطة وما يحتاجون إليه من أداة

إنما الحقيقة أن الدكتاتورية والحرب قرينان لا يفترقان ، لأن الدكتاتورية لا تقوم إلا على عسكرية ، والعسكرية لا تستقر طويلاً بغير قتال ، ولا أمان للعالم كله إلا باتجاه سريع إلى الديمقراطية يقصيه من زبانية الاستبداد سواء كانوا من أهل اليمن أو من أهل الشمال

عباس محمود العقاد